الغريب في أيقونته

غسان زقطان

صبا وحجاز
عاشقان لهذا المكان الخفيّ
فقط عاشقان
وناي وحيد
وجنيتان من الماء
تستوقفان الكلام العفيّ
وتستأثران بروح المجاز
كأنا دخلنا إلى الناي
من غفلة
بين سهو الصبا
وشرود الحجاز!

غسان زقطان، شاعر من فلسطين/ رام الله

حفر على الخشب [1]

1

في منزل الصبّار
أُكمل ما بدأتُ

2

روايةً للموتِ والموتى
وفصلاً في شؤون الطير

3

بيتي رحلتي والريح بابي
والنوافذ ما رأيتُ

4

خسرتُ أموالي
وظلت فطنتي

5

أعمى بصير عند عشّ النسر
ينحت عزلتي لتحبني الأنواع

6

لا طفتُ الضباع
ولم أثق بسواي

7

لا أرضاً تركت لكي أعود
ولا طريقاً كي اصلْ

8

في منزل الصبار، حين صحوتُ
كان لديّ اسم كامل
ويدان من ذهب

«وفي حلّ من التذكار
كنتُ»

الغريب في أيقونته

الطبيعة التي تركتني دون أمل
وذهبت لتيبس في الحقول

بيوتي المتروكة في ذكريات الآخرين ومآثرهم

الفتيات على المرفأ
بنوايا سيئة ينتظرنني

حلم الذئب في بريته
ورغبة الضبع في وجاره

السرو الذي أحصيته
والطرق التي طويتها
تبتعد وتتشابه
فيما أتذكر وأنسى

أنا الذي بالغت ، كثيراً ، في كل شيء

اذهب وحيداً كما ولدتني أمي
لأجلس في أيقونتي

ممرات قديمة
ألاّ أصابعها ، لم تنم
كانت هناك معلّقة في التذكّر
ترتق أحلامهم تحت ضوء خفيف

بينما
جرس واحد كان يطوي الطريق إلى بيتها
جرس صابر كان يصعد من جهة التل

حيث الخرابة والديْر

جرس واحد كان يعرج خلف السياج
ومقبرة المسلمين
ويعبر في خلوة الجن والميتين الذين ينامون
عند الينابيع في طرق الطيْر

جرس واحد للنساء الغريبات
والأمنيات القليلة والصيفْ

للثياب القديمة والكتب المدرسية
والصِبْيَة الميتين على سدّة السقفْ

جرس واحد يصعد التل خلف الزمان القديم
وخلف الشجيرات في السفح
حيث الكلاب القديمة مطوية في الحكاية
والدور ملمومة في الهواء المصبّرْ

جرس واحد كان يندهها باسمها وهو يصعدْ
ربما كي يرى الهاء معقودة فوق حرش الصنوبر!

اغنية الرماة في «شو»

1

فلاحون على طرف البّرية
ينتظرون وصول النهر
شماليون بأيد بيض ومراوح من قشّ ملكيّ
ينتظرون رماة منسّيين
وخيلاً منهكة تتعثر في السبخات

2

في المعبد البوذي
تتراكم الأغنية المريرة للملك «بونو»
ومسيره الجنود في «شو»
وفي الممرات التي ضبّبتها أدخنة البخور
يصرخ الرماة على البرية
ويصل لهاث خيول أنهكها السير

« . . . ها نحن هنا ، نجمع أولى براعم السرخس
ونقول متى سنعود إلى أوطاننا
نحن الذين هنا لأن الـ «كين نين»
هم أعداؤنا
وليس لنا أن نخلد إلى الراحة جراء هؤلاء المغول»

خالية من الآلهة تلك الأغنية وصافية
ممتلئة بالمباغتة

وشجن الجنود ومشاغل الملك ومآثر الرماة

الرماة الذين يتجولون إلى الأبد في البرّية
ممجدين كما يليق بكلمات الملك وثنائه

3

في الليل نسمع اصواتاً وحمحمة خيول
وثمة عربات لا نراها تترك آثار دواليبها
على الأرض الموحلة

نخبة الحرس الذين ذرعوا البرية
وتتبعوا الإشارات
قالوا، ليس هناك سوى لهاث الخيل
وتنهّد رجال أقوياء

وليس سوى آثار الدواليب
وبراعم السرخس التي تمشي في الهواء
على مستوى كتف رجل بالغ

كأن مسيرة كاملة من الرماة يقودها ملك
تذرع على غير هدى، هذه البرية!

شبّاك «ستيفاني»

يشرف الموت على البيت الذي في «عين مصباح»
كشرفة

المناديل على ريحانة البيت المعلّق .

التسابيح التي جاءت من الفجر مع الناس
ولم تصعد على الأدراج .

أفكار اليمامات على السور
وموسيقى النحاسيات في المخفر
والشرطي في العشرين من غزة
يشكو لصبي الفرن :
لم اطرق على شباك أمي منذ عامين!

المصلّون على مهل
وفي الأعلى ، وراء التين ،
شبّاك الفرنسية أزرق .

حفر على الخشب 2

غلبني أعدائي
باعوا حصائري الثمينة ومسابحي الملونة
لعابري الظلال
وتجار الخان

في الخان خدعني تاجر الحنطة
وشربت نبيذاً مغشوشاً على ضوء خافت
، كانت الساقية البدينة تنظف فخذيها وراء البراميل
الخشبية وزوجها الخبيث يدلني على الغرفة القذرة في الأعلى،

خانني أصدقائي في الظهيرة
ورأى أطفالي ضحكة الضبع على النافذة
حين اشتعل القش في العلّية

فتحوا باب الحظيرة في غيابي
وأطلقوا البغل والعجول والثور
وخلطوا الدقيق بالملح

هرّت الكلاب التي أطعمتها من طبقي
وتركت نباحها على القلع والشوك
وثياب الجار وابنتيه الذئبيتين

بلا فائدة
حرثت ثلاثين سنة
وأطعمت أصدقائي
وغفرت لجيراني سرقاتهم ووشاياتهم السوداء .

بلا فائدة
حملت الماء إلى بيوتهم

والعلف إلى عجولهم
والخمر إلى موائدهم

بلا فائدة
تركت سراجاً على المنحدر
وطبقاً مغطى بالحليب والسمن على العتبة .

الذي وجدته صدفة في المرآة
الذي وجدته ، صدفة ، في المرآة
في طرفها المعتم تحديداً

كان هناك ، وحيداً ، يفكر بك
ويتودّد إلى عزلتك

الذي ، لأنك بحاجة إلى رفقة ـ لا أكثر ـ
ناديته من عتمته
وأطعمته بيديك

كنت تناديه فيأتي
وتشير له فيثب على قدميه

وما إن تدير ظهرك حتى يحدجك بعيني ضبع
قبل أن يعود إلى زاويته في المرآة

الآن تتذكر ذلك كله
لأن ثمة وقتا طويل عليك تزجيته هنا
وأنت تحدق من المرآة
من طرفها المعتم، تحديداً،

فيما هو جالس في مقعدك
يطعمك بيديه
ويسقيك
ويناديك فتأتي!

صورة المنزل في «بيت جالا»
عليه أن يعود ليغلق تلك النافذة
، ليس واضحاً تماماً،
إذا كان عليه أن يفعل ذلك
الأشياء لم تعد واضحة
منذ أن فقدها
وبدا أن حفرة انفتحت في مكان ما منه!

أنهكه إغلاق الثغرات
وإسناد الأسيجة
ومسح الزجاج
وتنظيف الحواف
ومراقبة الغبار الذي ، منذ أن فقدها ،
بدا كما لو انه يستدرج ذكرياته إلى أفخاخ وخدائع!

مثل خديعة تبدو طفولته من هنا!

أنهكه ، تماماً ، تفقّد الأبواب
ومصاريع النوافذ
وأحوال النباتات
وتنظيف الغبار
الذي لم يتوقف عن التدفق
إلى الغرف والأسرة والشراشف والأواني
وإطارات الصور على الجدران!

منذ أن فقدها وهو يجلس في بيوت أصدقائه ، الذين يتناقصون ،
وينام في أسرتهم
بينما الغبار يأكل ذكرياته «هناك» .
. . . عليه أن يعود ليغلق تلك النافذة
النافذة العلوية التي غالباً ما ينساها في نهاية الدرج المؤدي إلى السطح!

منذ أن فقدها
وهو يمشي دون سبب
الغايات الصغيرة للنهار لم تعد واضحة أيضا .

كما لو انه هي
فكّر في ذلك الإحساس!
الذي يشبه أن تحمل طوال الرحلة حقيبة سواك وروايته
دون أن تنتبه
بينما روايتك تموت عند خط البداية

وتجف في أنحائها الإشارات والوجوه والمواعيد الملفوفة بعناية
بانتظار أن تحدث!

فكّر أيضا:
انه حمل رواية ميت
أو شخص لم يأت أصلا

خطأ ما حدث هناك عند خط البداية
خطأ صغير يراكم عتمته بصبر ميت ودأبه

كان عليه أن يعرف
عندما كان الموتى يفتحون أحلامه ويدخلون إليها
بتمهّل العارف وريبته
، موتى لم يلتق بهم من قبل، أو هكذا خيل إليه،
ولكنهم يواصلون الدخول بهيئاتهم المشوشة!

كان عليه أن يعرف
عندما سأل المرأة التي وجدها بالمصادفة، في الشرفة
تسقي زهور الخبيزة، عن اسمها . . .
كانت ترتدي قميصاً رجالياً، تذكر انه ابتاعه من تاجر جوال
في الصيف، وخفّاً منزلياً
وكان هناك ما يشي بِقَدمٍ وجودها ونزاهته!

أو
عندما، استثناه الضابط، هكذا وهو ينكش أسنانه،

من دورية منتصف الليل ، تلك التي أبيدت دون رأفة على
بعد أمتار من الساتر الترابي!

أو الرائحة
الرائحة التي توقظه في الصباحات ، الشتائية تحديداً ،
الرائحة التي لها عينان آسيويتان تحيطان به مثل نبع وتواصلان بعث
فراشات ملونة إلى قلبه

أو
عندما رأى نفسه على الضفة الثانية للبحيرة ، كان يرتدي
ثوباً خفيفاً من الحرير الأزرق وثمة نساء يضحكن في الاجمة
كانت هناك ، أيضا ، امرأة لم يتبين وجهها تواصل تذكّره وتبعث اعترافاً
مشوشاً بذنوب يكاد يعرفها ، عثرات ومصافحة سريعة يد باردة على
كتفه العاري . . . صوت يتقدم من المنعطف أو الضوء في الشقة المجاورة التي مات ساكنها الوحيد منذ أسابيع . . .

هنا كان الأمر يلتبس عليه تماماً ويبدأ العشب بالتطاول
حتى يغطي ضحك النساء على الأجمة ، وتتكاتف رائحة النعناع وجذور القصب لتفصل المكان برمته عما حوله ويبدأ ذلك الإحساس
بإحاطته فيجد نفسه وحيداً في ذكرياتها ، المرأة ،
كما لو انه هي!

لست وحيداً في البرية
في جبل النجمة ، عند الحرش ، سيستوقفني الساحر
حيث ممر تعبر منه مراكب ذات قلوع سود

يجلس فيه الموتى قبل الفجر بأردية سوداء وأقنعة من قش
تعبر منه الطير
ويسبح فيه ضباب ابيض، بوابات تُفتحُ في الأجمات
وثمة من يتحدث في المنحدر
وتُسمع أجراس وحفيف من أجنحة تخفق

يشبه أن الغابة تعبر فوق الجبل وتترك اثلاماً في الليل

. . . وفلاّحون، وصيّادون وجند مذهولون،
مؤابيون، أشوريون وكرد ومماليك وعبريون بأدعية
من مصر ومصريون على عربات الذهب
شعوب من جزر بيضاء وفرس بعمامات سود
وثنيون فلاسفة يطوون القصب
وصوفيون سعاة خلف العلّة . . .
خفق الأجنحة يجر الغابة نحو حواف العتمة

في جبل النجمة، عند الحرش
كأن صلاة الغائب تفرش سجادات التقية
حيث يُرى الأخدود إلى أقصاه
وتعبر رائحة البحر المحروثة مثل حصاد الجنّ
محاذرة في الشقّ وتلمع أدعية الرهبان
فألمح أشباح المجذومين تنام على أشجار السرو الهرمة .

في جبل النجمة، عند الحرش
سأسمع صوتاً مألوفاً وقديماً

صوت أبي يلقي بالنرد الى جهتي

أو

مالك وهو يجر حصاناً أشقر في المرثيّة

صوت حسين البرغوثي النائم تحت اللوز
كما أوصى في المتن

وصوتي:

لست وحيداً في البرية !